

المحاضرة الثانية عشرة

المعجم الشعري والتراكيب :

نحن نعلم أن الشعر تعامل خاص مع اللغة في مفرداتها وتراكيبها ، فاللغة بمفرداتها وتراكيبها تأخذ في الشعر وضعا خاصا ، وتؤدي وظيفة خاصة ، بل إن كل شاعر أصيل يكون له تعامله الخاص مع اللغة ومن ثم يكون الحديث عن معجمه الشعري وعن ميزاته الأسلوبية الخاصة . كما أن المعجم الشعري والتراكيب اللغوية تتأثر إلى حد بعيد بنوعية التجربة التي يعبر عنها الشاعر ، أو بنوعية رؤيته . بمعنى أن نوعية الرؤية تفرض نوعية خاصة في المعجم الشعري وفي التراكيب اللغوية المستخدمة في الشعر.

فالرؤية الكلاسيكية تتعامل مع اللغة - مفردات وتراكيب - عن
الرؤية الرومانتيكية ، والرؤية الواقعية تتعامل مع اللغة بطريق
تختلف عن الرؤيتين السابقتين .

إن رحلة الشعر اليمني فنيا من الرؤية الكلاسيكية إلى الرؤية
الرومانتيكية ثم الرؤية الواقعية كانت متعاصرة ، وكذلك كانت
رحلة في عالم المعجم الشعري والتراكيب اللغوية في الشعر .
فكان هناك :

أولا : المعجم التقليدي والأبنية والتراكيب الخطابية العالية
النبرة، ولكن هذا ليس عاما ؛ فالشعراء يتفاوتون في مدى
استعانتهم في هذا المعجم بالمعجم الشعري التقليدي في الشعر
العربي القديم . وكذلك الشأن في الأبنية والتراكيب .

فعلى حين يجتمع في شعر الزبيري والموشكي كثير من
مفردات المعجم الشعري القديم والتراكيب المألوفة ، نجد هذا
المعجم يتضاءل في شعر البردوني إلى حد بعيد وإن ظلت هياكل
الأبنية التقليدية قائمة .

فالموشكي مثلا حين يقول :

ستقرع بعد اليوم من ندم سنا

إذا ما فؤاد الشعب باح بما **جنا**

ولبي **أباة الضيم** أصوات هاتف

بهم **أسمعت أصواته الإنس والجنا**

نلاحظ تعويل الشاعر على صور من الأبنية اللغوية الشعرية لها
أصداء واضحة في محفوظنا من التراث الشعر العربي ، وترتبط
المفردات بأبنية القديمة .

والزبيري حين يقول:

تطل عليه الشمس عميا كليلة كأن **مسا من السحر** مغربا

فتراكيب البيت تستدعي صوراً قديمة من مثل قول المتنبي : تمر
بك الأبطال كلى هزيمة .

فالشاعران يعولان على معجم الشعر القديم وأبنيته اللغوية
وتراكيبه بما يبين طريقة تعامل الشاعر مع اللغة ، وهو في
تعويله على الموروث القديم ، يتجنب مغامرة خلق اللغة الخاصة .

أما البردوني ، فالغالب عليه استعانتة بالأبنية والتركيب دون المعجم ، إنه يقف في منتصف الطريق : رجل في الماضي ورجل في الحاضر ، إنه شاعر محير وموقفه الشعري نفسه محير ، وكان قادرا على تجاوز حيرته بالانطلاق نحو المنطلقات الجديدة . فهو حين يقول :

والتقوا يغسلون بالنار دنياهم ويحمون بالدم الأوحالا
وأضاءوا والليل يبتلع الشهب وأم الهلال تطوي الهلال
فتاغى ومض المآذن، ماذا ؟ أي فجر أشيم فيه بلالا!
والرؤى تسأل الرؤى ضج الصمت ، واستفسر الخيال الخيالا
من أطلوا كصحو نيسان يكسون الربى الجرد خضرة واخضلالا
ومضى الثائرون يقدون شعبا يتحدون باسمه الآجالا
كالقلاع الجهنميات ينقضون ، يرمون بالجبال الجبالا
ويشبون ثورة رمت التاج وهبت تتوج الأجيالا

ففي الأبيات ألفاظ قليلة تنتمي بصيغتها إلى الاستخدام الشعري القديم "الجرد" و"الاخضلال" و"أشيم" ، ولكننا نجد تراكيب خاصة غير مألوفة (يغسلون بالنار دنيانا - الليل يبتلع الشهب - تتاغي ومض المآذن- ضجيج الصمت - القلاع الجهنميات) .
فها هنا قد أنشأ الشاعر علاقات جديدة بين المفردات في كل تركيب ، فاكتسبت التراكيب خصوصية وجدة. ومع هذا فإننا لو رددنا البصر فيها مرة بعد مرة لأستدعت أمثالها في الشعر القديم ، مما يجعلنا نقول : إن البردوني أقام بناء على أساس من خطة معمار قديم ، ولكنه يستخدم عناصر خاصة في البناء. ولكنه يتخلص من هذا الطابع في قصائده التي تعكس رؤيته الرومانتيكية .

ثانيا : المعجم الرومانيكي والتراكيب الهامسة الذي راج في الشعر العربي في حقبة الثلاثينات والأربعينات على أيدي الشعراء الرومانيكيين وشعراء المهاجر ، وقد تسرب هذا المعجم إلى كثير من الشعراء في اليمن (أحمد الشامي - البردوني - الحضرائي - علي محمد لقمان - لطفي جعفر أمان -) وتبدى فيه خفوت في نبرة الشعر وهدوء النفس ، وكان الشعر غدا حديث الذات إلى ذاتها .

يقول لقمان:

يا بحر لا تعذل ولا تعتب ولا يروعك انتفاخ الشراع
هذا هو الشاعر في الموكب يخلو له يا صاحبي الاندفاع
ويقول جعفر أمان:

وغفونا ، وتمنينا زمانا لا نفيق
أي دنيا غرقت في الكون في صمت عميق
سعرت أنفاسنا الولهى بنيران الرحيق
ودفنا في عناق كل ما فيه حريق
ويقول كذلك:

أراك هنا

تشعين وجها مديد الضياء

مديدا يعانق كل الدنا

ومنديك القرمزي الشفيف

يرف على نسَمات السنا
وينشر فوق دروب العبير
طيوبا منابتها أرضنا
فأهفو إليك

أفتح كل نوافذ قلبي
لعطر الضياء
أمد اشتياقي

ويقول الحضراني:

أهيب بالمقلة أن ترعوي عن غيها والقلب أن يستفيق
فقد كفى الأحشاء ما تنطوي عليه من جرح وحزن عميق

- - - - -

جئت وفي قلبي جراح الوجود وفي جفوني قلق الراحل
أود لو زالت أمامي السدود أو تستقر النفس في الساحل

نلاحظ أن بعض الشعراء قد استخدموا الشكل الجديد ، وظل
معجم القصيدة وتراكيبها رومانتيكية ، ويصادفنا مفردات ()
الشاعر في الموكب - وتمنينا زمانا لا نفيق - أنفاسنا الولي -
نيران الرحيق - تشعين - المنديل القرمزي الشفيف - يرف -
نسمات السنا - دروب العبير - عطر الضياء - جراح الوجود -
قلق الراحل) ، وهي من ألفاظ الرومانتيكيين ، وهم على اتفاقهم
في مناحي التجربة الشعرية وفي وسائل التعبير عنها ظل لكل
واحد منهم نفسه الخاص المميز له. ولهذا المعجم وهذه التراكيب
دور أساسي في إثارة المشاعر الرهيفة ، وهذا راجع إلى العلاقات
الجديدة التي ينشئها الشاعر بين المفردات ، ومن ثم كانت ”
نيران الرحيق - نسمات السنا - عطر الضياء ، وهي تراكيب تولد
صورا تتجاوز الواقع وتعلو عليه وتصبح بديلا عنه .

ثالثا: معجم الرؤية الواقعية وتراكيبها:

من البدهي ألا يصلح المعجم الكلاسيكي أو الرومانتيكي ، وكذلك التراكيب ، للتعبير عن الرؤية الواقعية . فالنظرة الواقعية تتعامل مع اللغة بوصفها الوجود نفسه ، إنها ليست تصويرا للواقع بل هي الواقع نفسه بكل ما فيه من جدل وحركة ، والشعر إنما يعيد بناء الكون عن طريق اللغة .

وبالنظر في معجم الرؤية الواقعية الفنية يتبين لنا أن الشاعر لا يستخدم الأبنية التقليدية الخاصة بالشعر القديم فيما يستخدم من مفردات ، بل الغالب فيه استخدام الأبنية العامة المألوفة في الكتابة العصرية ، وبهذا يقترب المعجم من الواقع ويصبح تمثيلا حقيقيا له .

تخلص معجم الرؤية الواقعية من الصيغ أو الأبنية اللغوية ذات
النبرة العالية ، والإثارة الحسية الناعمة ، وظل مخلصا للواقع
فيما يتدوال من مفردات ، وكذلك الأمر بالنسبة للتراكيب ،
تختلف عما سبقها ، وغدت تتكلم بصوت مسموع .
والقصيدة ليست تقريرا عن الواقع بل رؤية فنية للواقع ،
ومن هنا تحمل كل مفردة وظيفية فنية ، نستطيع من خلالها أن
نفسر ما يصادفنا من رموز أو إشارات رمزية أو أساطير ، فمثل
هذه العناصر حين ترد في السياق إنما ترد لتصب شحنتها
التعبيرية في السياق ، وتشارك في البناء الكلي .

وإذا نظرنا في الشعر اليمني وجدنا من الشعراء من
يستخدمون معجما شعريا وتراكيب لغوية لا تدين بشيء للمعجم
والأبنية التقليدية ، ومن هؤلاء الشعراء ” عبده عثمان -
الشرفي - المقالح - عبد السلام ناجي - أحمد الشجني - أحمد
الماخذي ” ينطلق هؤلاء من رؤى واقعية ، يختلفون في مدى
تحقيق الوجه الفني لهذه الرؤى ؛ فبعضهم يسجل الواقع تسجيلا
حرفيا ، وهذا يجافي طبيعة الرؤية الواقعية الفنية للواقع (عبده
عثمان) ، لأن الرؤية الفنية تشترط التفاعل بين الشاعر والواقع
شروط أساسي (عبد العزيز المقالح - الشرفي - عبد الله سلام) .
ونقدم قصيدتين للشاعر عبده عثمان (الأصوات من الداخل)
و(الباحثون عن وجوههم) لنبين الفرق بينهما في مدى نجاح
الشاعر في توظيف المعجم والتراكيب توظيفا فنيا ، وفي مدى

تحويل هذا المعجم وهذه التراكيب إلى وحدات بنائية لا يمكن الاستغناء عنها في القصيدة .

فالقصيدة الأولى طويلة ، يستطرد فيها الشاعر ، وكان بمقدور الشاعر أن يوظفه توظيفا فنيا ناجحا لتعميق الرؤية ، ولكن حال دون تحقيق هذه الوظيفة أن المعجم والتراكيب جميعا كثيرا ما كانت تسجيلية صرفا للحقائق والوقائع المطروحة والمعروفة .

ولنقرأ القصيدة للشاعر ” عبده عثمان “:

وجدت نفسي شاخصا

وذاهلا - أواه - عند باب خيمة

تمسك بي تكالى

ويمسك اليتم واليتيمة

كم طال عند أهلها النواح

في حلك الليل تغنى للصبح

وكل من بها ياكم تكوموا من قلة الدفا

قالت وأكدت تلك الليالي في الشتاء

كم جاعوا ، كم وكم

ماتوا، يموتون جوعا وظماً على طريق الفجر في الصحرا

وعندما هبت الرياح من جديد

بعنفها الجديد

مطلقة قواها والسموم

تريد أن تأتي على بقية الخيام

لو نظرنا في التراكيب (وجدت نفسي - طال عند أهلها النواح -
وكل من بها - قلة الدفا - قالت وأكدت - تأتي على بقية الخيام

(

وهي تراكيب من الحياة اليومية ، ولا تفجر أي دلالات شعورية

خاصة ، ومن ثم غلبة الطابع التسجيلي ، وفقد الشعر فيها

نبضه وحيوته وانفجاراته المثيرة ، نتيجة لمحدودية الوظيفة

التي أداها المعجم وما تكون منه من تراكيب ، وانحصارها في

مجرد نقل المعلومة ، ثم اتسعت رقعة القصيدة على حساب

التكثيف والتركيب اللذين يميزان معجم الشعر وتراكيبه .

أما القصيدة الثانية ، فإننا نرى الشاعر يتعمق الموقف ويغوص
في أغواره ، إنها عن لحظة الشعور بالإحباط والخذلان الداخلي
والإنكسار بل الموت بلا ثمن :

ونسحب أوصالنا كالسكارى
ونبحث عن موقع ليس فيه سوانا

نذم الزمان ونهجو رياح الليالي
فنسقط من شرفات الخيال

وتمضي تحديق في

وأمضي أهدق فيك

ولستُ الغريب

ولستَ الغريب

لأصرخ: ما اسمك؟

لأصرخ: ما اسمك؟
وأردف: من أي أرض أتيت؟
فكأسك كأسى
ونشرب من قرية واحدة
ونلبس نفس الثياب
ونطرق في مآتم واحد
وتلف في نظرات العيون لنا أسئلة
أنحمل في الناس صيحة؟
ولكننا لا نصيح
كانك لست الطعين
كأنى لست الجريح
أنصلب سرا؟

وأواه أواه أين الصليب؟
وأين أنا؟ أين هم؟ أين أنت؟
وهيهات أين مكان المسيح؟

بداية نحس بالهزيمة والانكسار (نسحب أوصالنا) ، ثم تتوالى
إلى جزئيات الصورة لكي تؤكد هذا الإحساس وتعمقه .
إن الفرق بين القصيدتين على مستوى المعجم الشعري والتراكيب،
وكل شيء يوظف توظيفا فنيا ، وكل حرف يرتبط بالمعنى العام
الذي تعبر عنه القصيدة ، وتتكامل فيما بينها في رسم الصورة
الكلية .

وكلمة أخيرة : إن الرؤية الفنية للواقع في الشعر تقتضي نوعا
خاصا من التعامل مع المعجم ومع الأبنية اللغوية والتراكيب حتى
يتحقق شرط الفن في التعبير إلى جانب الموقف الملتمزم .